حلقات إسلامية

٦

دور الإمام الصادق في مسيرة الدعوة الإسلامية

سماحة الدكتور السيد محمد بحر العلوم

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

دور الإمام الصادق
في
مسيرة الدعوة الإسلامية

حلقات إسلامية

٦

دور الإمام الصادق (ع) في مسيرة الدعوة الإسلامية

سماحة الدكتور السيد محمد بحر العلوم

دار الزهراء (ع)
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

الطبعة الاولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤

نص المحاضرة التي القيت في جمعية آل البيت
- لندن -
في
٢٤/٩/١٤٠٢هـ
١٤/٨/١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد(ص) وآله الغر الميامين وعلى صحبه الطيبين المنتجبين .

وبعد :

أحييكم ايها الاخوة والاخوات ، ويسعدني ان التقي بكم في هذه الندوة العامرة بين الفترة والاخرى ، وفي هذه المرحلة الصعبة ، والظرف الشاذ الذي يمر به المسلمون في الوطن الاسلامي الكبير .

تمر علينا في هذه الايام ذكرى وفاة الامام ابي عبد الله الصادق عليه السلام ـ سادس ائمة آل البيت ـ ، ومن الجدير بنا ان نتلمس من خلال هذه الذكرى العطرة ، جوانب من سيرة هذه

الشخصية القيادية العظيمة ، والتي عرفت طائفة كبيرة من المسلمين باسمه ، وهم « الجعفرية » .

وحديثي عن هذه الشخصية سيكون مقتصراً على جوانب ثلاث منها أحاول قدر المستطاع الايجاز فيها ، لان مجال القول والبحث في هذا المضمار يتسع لمجلدات ، انما مهمتي في هذه الندوة تنحصر في اعطاء صورة ـ ولو مصغرة ـ عن شخصية نرتبط بها أرتباطاً عقائدياً وكيانياً .

مقـــدمة

الامامة ضرورة رسالية للدعوة الاسلامية :

الرسالة الاسلامية ضرورة أقتضتها طبيعة بناء المجتمع الانساني من أجل البقاء والاستمرار ، حيث ان الله سبحانه لم يخلق البشر سدى ، انما خلقهم ليكونّوا مجتمعاً صالحاً يعيشوا فيه بسعادة ورفاه ، كما يقتضي العدل الالهي ذلك ، فان رحمته وسعت كل شيء ، **﴿ فـما كـان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾**[1] .

---

١ ـ سورة التوبة ـ آية : ٧٠

ومن تقرير هذه الآية الكريمة بأن الله لا يظلم أحداً ، فلا بد له ، وهو الخالق ان يهدي هذا الكائن بما يوضح له معالم مسيرته الحياتية ، وتكاملها الحضاري وبما يضمن له الرحمة والوفاء فكانت الديانات السماوية ، هي الهادية ، والمقومة لهذا الكائن الانساني ، كما كان الانبياء والرسل هم القادة لهذه الشرائع ، وحملة مشاعل الهداية الى بناء مجتمع انساني كريم ، ولا يجوز تخلف هذا عن ذاك ، ولا عكس فكما لا يمكن ان تكون شريعة بدون مبلغ ، فكذلك لا يتصور مبلغ هادف بدون رسالة ، طالما كان ذلك من حكم الله ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون** ﴾[1] .

والدعوة الاسلامية ، كأي دعوة سماوية اخرى تكفلت خير الناس ، وبناءَ مجتمعه على اساس من الرفاه والرحمة ، وامتازت على غيرها بالديمومة والبقاء ، فاذا كانت الشرائع السابقة محددة ، فان الاسلام لكل العصور والازمنة الى

---

١ ـ سورة الاعراف ـ آية : ١٨١ .

آخر الدنيا .

وكما لكل الديانات السماوية رسل يبلغون رسالة الله لعباده كان للدعوة الاسلامية محمد بن عبد الله رسولهُ ، وأمينهُ على وحيه ، يبلغ رسالة الله لعباده ، ﴿ **لقد مَنَ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياتِهِ ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾[1] . اذ لا يجوز عليه ـ وهو اللطيف بعباده ـ ان يرتب الجزاء على أوامره ونواهيه ، ثواباً وعقاباً ، لولا وجود المبلغ الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ **ان هو الا وحي يوحى** ﴾ . وكذلك هو ضرورة حتمية لمسيرة الدعوة الاسلامية ، وبناء مجتمعها الاصيل ، نظراً لكونها مستمرة ما دام الليل والنهار .

ومما لا شك فيه ان النبي القائد(ص) طيلة فترة ايامه الرسالية في عمر الدعوة المباركة لم يوضح

---

١ ـ سورة ال عمران ـ آية : ١٦٤ .

كل التشريعات المقتضية للدولة الاسلامية ، وبناء مجتمعها الانساني العتيد ، وذلك :

١ ـ ان عملية التغيير ـ للانسان الذي كان يعيش المجتمع الجاهلي بكل أبعاده وركامه ـ تحتاج الى فترة أطول من تلك الفترة التي عاشها الرسول الاعظم ، ولعل الاحداث التي رافقت الايام الاخيرة من حياة النبي القائد(ص) وما بعد وفاته دللت بوضوح على تشبث الروح اللاالتزامية للدين ، وكادت تعود بالكثير من المسلمين الى جاهليتهم الرعناء .

٢ ـ ولأن متطلبات الدولة الاسلامية ـ وهي في دورها الفتي ـ ما كانت بتلك السعة التي تقتضي ان يعلن الرسول الكريم كل الاحكام والتشريعات ، حتى آخر الزمان ، انما وضع القواعد والاسس لتنظيم الحياة ، مما يضمن سلامة مسيرة الدعوة وعدم تأخرها عن ممارسة فاعليتها في تحقيق الاهداف الكبرى للاسلام .

وكانت الامة ، وهي تأخذ احكامها من

نبيها ، وقائد مسيرتها تشعر بفراغ ذمتها مما يترتب عليها من الثواب والعقاب ، باعتبارها مسؤولة امام الله سبحانه بادائها صحيحة كاملة على اساس انه المبلغ الاول عن الله بواسطة وحيه ، وامين كتابه ، وانه المعصوم عن الخطأ والخطيئة .

وشرط العصمة في النبي ضروري ، لان اي احتمال لتسرب الخطأ ، او الخطيئة يدفعنا الى أحد امرين :

١ ـ اما الى الشك في صحة اقواله ، وأفعاله ، ولا ينافي كون نسبة هذا الشك واحداً بالمائة ، أو أكثر ، فانه يترتب عليه عدم اطمئنان المكلف بصحة اعماله الواجبة الاداء ، والتي لا بد من توفر سلامتها من الخطأ ، لترتب الثواب أو العقاب عليها .

٢ ـ وأنه لو جاز ان يفعل النبي (ص) المعصية ، أو يخطأ ، وينسى ، وصدر منه شيء من هذا القبيل فاما أن يجب اتباعه في فعله الصادر منه عصياناً أو خطأ ، أو لا يجب ؟ .

فان وجب اتباعه فقد جوزنا فعل المعاصي برخصة من الله تعالى بل أوجبنا ذلك ، وهذا باطل بضرورة الدين ، والعقل .

وان لم يجب اتباعه فذلك ينافي النبوة التي لا بد ان تقترن بوجوب طاعة الامة لها ابداً .[١] .

ويترتب على ذلك ان يصبح قول النبي ، وفعلهُ وعمله كسائر الناس ، الذين ليس لكلامهم ، ولا لعلمهم تلك القيمة العالية التي يعتمد عليها دائماً ، فتذهب فائدة البعثة اولاً ، كما لا تبقى طاعة حتمية لأوامره ، ولا ثقة مطلقة بأقواله وأفعاله ثانياً[٢] .

والنبي القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلم يقيناً انه لم يشر الى كافة الاحكام التي اقتضتها حياة الامة ، وتفاعلها مع الدولة الاسلامية الفتية ، والقضايا التي ستجد فيما بعد ، حسب حاجة الامة

---

١ ـ المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر ـ عقائد الامامية : ٧٩ ـ ٨٠ .
٢ ـ المرحوم المظفر ـ المصدر المتقدم : ٨٠ .

والمجتمع اليها .

كما انه على علم ويقين ـ أيضاً ـ ان ايامه الاخيرة آتية لا ريب فيها ، وان رسالته ممتدة الى آخر الزمان ، فعليه ان يعين من يخلفه في تحمل اداء الرسالة من بعده لسببين :

الاول ـ ان شريعة الاسلام مؤبدة ، وان المصلحة لها ثابتة الى قيام الساعة لجميع المكلفين ، وفي هذه الحالة لا بد لها من حافظ ، ولا يخلو الحافظ من ان يكون جميع الامة أو بعضها ؟

ولا يجوز ان يكون الحافظ لها الامة ، لأن الامة يجوز عليها السهو والنسيان وارتكاب الفساد ، والخطيئة ، فاذن لا بد لها من حافظ معصوم يؤمن من جهته التغيير والتبديل ، والسهو ، ليتمكن المكلفون من المصير الى قوله[1] ، والاقتداء بأعماله ، وافعاله .

---

١ ـ ابو جعفر الطوسي ـ تلخيص الشافي ـ ١/١٣٣ ـ ١٣٤ .

الثاني - ان فراغ ذمة المكلف من التكاليف المفروضة عليه قطعاً من الله تعالى واجب عقلاً ، وليست كلها معلومة من طريقة قطعية ، فلا بد من الرجوع فيها الى من نقطع بفراغ الذمة باتباعه ، وذلك اما الامام على طريقة الامامية ، أو غيره على طريقة غيرهم[1] . بناءً على قاعدة «انشغال الذمة اليقيني يستدعي الفراغ اليقيني ».

واذا كانت الامامة - كما تقدم - ضرورةً رساليةً لمسيرة الدعوة الاسلامية « فلا بد ان يكون في كل عصر إمام هادٍ يخلف النبي في وظائفه من هداية البشر ، وارشادهم الى ما فيه الصلاح والسعادة في النشأتين ، وله ما للنبي من الولاية العامة على الناس لتدبير شؤونهم ، ومصالحهم ، واقامة العدل فيهم ، ورفع الظلم والعدوان من بينهم »[2] .

---

١ - المظفر - عقائد الامامية : ٩٣ - ٩٤ .
٢ - المظفر - المصدر المتقدم : ٩٤ .

يقول الامام الصادق ـ عليه السلام ـ : « ما ترك الله الارض بغير امام منذ قبض آدم ، يهتدي به الى الله ، وهو الحجة ، من تركه هلك ، ومن لزمه نجا »[1] . ولذا « فان الزمان لا يخلو من حجة الله عقلاً وشرعاً »[2] .

وعلى هذا فالامامة استمرار للنبوة ، وامتداد طبيعي لها ، انما الفرق بينهما : « ان الامام لا يوحى اليه كالنبي ، وانما يتلقى الاحكام منه مع تسديد إلهي ، فالنبي مبلغ عن الله ، والامام مبلغ عن النبي »[3] .

ان وجود الامامة في اطار الدعوة الاسلامية عبر العصور ضرورة اقتضتها طبيعة المسيرة التشريعية والتاريخية لها ، وذلك لغرض بقاء المجتمع الاسلامي ضماناً لسلامة مسيرته ، وحفاظاً على زخم عطاءه ، وتجنباً للمتناقضات

١ ـ الكشي ـ الرجال : ٢٣٧ .
٢ ـ الطوسي ـ الغيبة : ٥٦ .
٣ ـ المرحوم الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ـ اصل الشيعة واصولها : ١٠٣ .

والسلبيات التي تفرزها طبيعة العصور ، والحضارات المشوهة .

والامامية من المسلمين يعتقدون ان خط الامامة محصور بالامام علي بن ابي طالب ، واولاده الاحد عشر من بعده ، وآخرهم الامام المنتظر ، ويستندون بذلك الى عدة أدلة نقلية ، وعقلية ، نورد بعضَها بايجاز اتماماً للفائدة :

أ ـ الادلة النقلية :

١ ـ استدلت الامامية ببعض الآيات الكريمة على حصر الامامة بعلي عليه السلام واولاده الاحد عشر ، منها : « إنما وليكم الله ورسوله ، والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون »[1] .

والآية الكريمة نزلت في حق الامام علي ، حين تصدق بخاتمه ، للسائل الذي أم مسجد رسول الله ، وهو يؤدي الصلاة ، والمهم في الآية

---

١ ـ المرحوم الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ـ اصل الشيعة واصولها : ١٠٣ .

ان الله سبحانه خص الولاية العامة على الناس ، والقيام بأمورهم ، ووجوب الطاعة عليهم ، به عز وجل ، ورسوله ، والذين آمنوا ، ثم خص اولئك المؤمنين بالذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون وهو الامام علي بن ابي طالب . واذا جاءت الصفات بلفظ الجمع عن الواحد ، فان اهل اللغة يجوزون ذلك على سبيل التفخيم والتعظيم[1] .

٢ ـ كما استدلت الامامية بروايات نبوية متعددة في هذا المضمار ، ومن أبرزها « حديث الغدير » حيث وقف الرسول الاعظم خطيباً في حجة الوداع عام التاسع للهجرة بين مئة الف من الحجيج ، أو أكثر ، وأخذ بيد علي عليه السلام ، وقال : « إلا من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وانصر من نصره ، وأخذل من خذله وأدر الحق معه كيفما

---

١ ـ الطبرسي ـ تفسير مجمع البيان : ٣/٢٠٩ ـ ٢١٢ .

دار »[1] وفي هذه الرواية دلالة واضحة على ان النبي خص علياً (ع) بالولاية على المسلمين .

ب ـ الادلة العقلية :

١ ـ ان الامام لا بد ان يكون مقطوعاً بعصمته بعد أن قرنه الله بالكتاب المقطوع بصحته عن التحريف والخطأ ، لانه منزل من الله سبحانه ، وذلك في « حديث الثقلين » « اني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وأهل بيتي ، وانهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[2] .

٢ ـ ويكون الامام أفضل الخلقِ بعد النبي (ص) ، ولا تتحقق هذه الصفة لغير علي ، لقول النبي (ص) : « علي مني بمنزلة هارون من موسى ، الا انه ليس بنبي » .

٣ ـ كما لا بد ان يكون الامام أعلمَ الناس بعد النبي ، وهذه الصفة لم يحزها غير الامام علي اذ قال

---

١ ـ راجع عن مصادر هذا الحديث ، ورواته ، واسانيده الجزء الاول من كتاب « الغدير » للمرحوم المحقق الشيخ عبد الحسين الاميني .

٢ ـ الحاكم النيسابوري ـ المستدرك على الصحيحين :٣/١٠٩ .

فيه رسول الله : « أنا مدينة العلم ، وعلي بابها » .

بقي علينا ان نعرف عدد ائمة آل البيت ، الـذين اشـار اليهم النبي (ص) في حـديث الثقلين ، وقد خصصتهم مصادر الحديث باثني عشر خليفة ، كلهم من قريش[١] ، ويرى الشيعة من المسلمين انهم علي وأولاده الاحد عشر : الحسن ، والحسين ، والتسعة من ذرية الحسين ، آخرهم المهدي المنتظر ، روى الشيخ المفيد : « ان سلمـان الفارسي قـال : « رأيت الحسـين بن علي (ع) في حجر النبي (ص). . . وهو يقبل عينيه ، ويقول : أنت . . . . حجة ابن حجة ، ابو حجج ، أنت الامام ، ابن الامام ، ابو الائمة التسعة من صلبك ، تاسعهم قائمهم »[٢] .

وكما نعلم ان آخر الائمة ـ وهو المهدي المنتظر ـ لم يقتل ولم يمت ، انما غيبه الله عن عيوننا ، بـاقياً مـا بقي الدهـر حفاظـاً لنظام

---

١ ـ صحيح البخاري : ٩/٨١ وصحيح مسلم : ٦/٣ ـ ٤ .
٢ ـ المفيد ـ الاختصاص : ٢٠٧ ـ ٢٠٨ طبع ايران .

التشريع ، وبقاءً لدور الامامة في مسيرة الدعوة الاسلامية ، بعد أن أشرنا الى ان المكلف لا بد ان يستمد احكامه من مصدر قطعي الدلالة وهذا لا يتحقق الا بوجود الامام المعصوم لغرض فراغ الذمة ، وبرائتها من تحقق الاتيان بالـواجبات المكلف بها على الوجه الاكمل .

بقيت مشكلة بقاء الامام المهدي حياً طيلة هذه القرون ، متغيباً عن انظار الامة ، ولقد عالجها العديد من الباحثين والكتاب من حيث امكان هذا الامر ، أو عدم امكانه[1] .

ولكن بقاء المهدي حياً ، لو عالجناها من حيث قدرة الله ، وعدم قدرته لانتهينا الى امكان قدرة الله في ذلك من ناحيتين :

١ ـ ان اعمـار البشر بيـد الله سبحانـه وقدرته ، وارادته ، فهو المحيّ ، وهو المميت ،

---

١ ـ راجع : السيد محمد الصدر ـ الغيبة الكبرى ، ود. عبد الهادي الفضلي ـ في انتظار الامام.

وقد قدر لنوح النبي ان يعيش قرابة الف سنة ، في حين ان الاعمار الطبيعية للانسان لا تتجاوز المائة ، قال تعالى : ﴿ **ولقد ارسلنا نوحاً الى قومه ، فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاماً ، فأخذهم الطوفانُ وهم ظالمون** ﴾[1] .

٢ ـ كما انه سبحانه وتعالى غيب أهل الكهف عشرات القرون يغطون في سبات عميق ، ﴿ **قال قائلٌ منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم . . .** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة ، وازدادوا تسعا * قل الله أعلمُ بما لبثوا ، له غيبُ السموات والارض أبصر به وأسمِع ما لهم من دونه من ولي ، ولا يشرك في حكمه أحداً** ﴾[2] .

ان الله متمكن من كل ذلك ، ولا يعسر عليه شيء ، ولا يحول بينه وبين ما يريد أمر واذا

---

١ ـ سورة العنكبوت ـ آية : ١٤ .

٢ ـ سورة الكهف ـ آية : ١٩ و٢٥ ـ ٢٦ .

كان كذلك فباستطاعة الله وحده ان يمد في عمر المهدي المنتظر أية مدة من الزمن طالت أو قصرت كما له المكنة من تغييبه عن انظار الناس لعلة يريدها هو ، ولا يعرف غيرها خاصتها .

ثم انه من باب اللطف والتخفيف عن العباد في تصحيح اعمالهم ، يرى الامامية ان اجماع الفقهاء - بما هو اجماع - لا قيمة علمية له ، ما لم يكشف عن قول المعصوم ، فاذا كشف على نحو القطع عن قوله فالحجة في الحقيقة هو المنكشف - وهو قول الامام - لا الكاشف وهو الاجماع ، ويكون حكمه - حينئذ - امتداداً للسنة[1] . وبهذا يكون المكلف قد أفرغ ذمته في زمن الغيبة ، على أساس ان رأي الامام المهدي الغائب - بلطف الله - منضماً الى رأي المجمعين من اهل المعرفة والعدل . والى هذا اشار الشيخ الطوسي بقوله :

---

١ - راجع : المرحوم المظفر - اصول الفقه : ٣/٩٢ والسيد محمد تقي الحكيم - الاصول العامة : ومحمد بحر العلوم - الاجتهاد اصوله واحكامه : ٧٢.

« ان الله سبحانه يجب عليه من باب اللطف بالعباد ان لا يمنعهم عن التقرب والوصول اليه ، بل عليه ان يكمل نفوسهم القابلة ، ويرشدهم الى مناهج الصلاح ، ويحذرهم من مساقط الهلكة . وهذا هو السبب في لزوم بعث الرسل ، وانزال الكتب ، وعليه فلو اتفقت الامة على خلاف الواقع في حكم من الاحكام ، لزم على الامام المنصوب حجة على العباد ازاحة الشبهة بالقاء الخلاف بينهم ـ ليتمزق الاجماع ـ فمن عدم الخلاف نستكشف موافقة رأي الامام (ع) دائماً ، ويستحيل تخلفه »[1] .

ان عالمية الاسلام وخصائصه الهامة في بناء مجتمع انساني حضاري ، يقتضي ان يأخذ دور الامامة بنظر الاعتبار في تاريخ المسيرة البناءة ، خاصة وان التطور الزمني السريع العلمي يتطلب التثبت في الرأي ، والدقة في الاجتهاد ، وان أئمة آل البيت هم الخط الاصيل ، والنهج الواضح

---

١ ـ المرحوم السيد علي الشاهرودي ـ الدراسات : ٨٨ .

لممارسة هذه المهمة . وقد دلل تاريخهم على الدور الفعال في الوقوف ضد اعداء الرسالة ، وكشف مخططاتهم التآمرية على انحراف الحكم ، وبذل المزيد من الجهد في دفع القاعدة الجماهيرية الى التضحية والنضال من أجل حماية الرسالة ، وتثبيت قواعد الدعوة ، حين ظهور الحكومات السلبية ، والتي تشكل في مسيرتها الطغيان القيادي ، والعسف الاجتماعي ، وكان هذا الموقف الحدي ضد الزعامات الحاكمة ، والموجة المنحرفة للحكم الاسلامي المشوه قد كلف ائمة آل البيت ثمناً باهظاً ، أودى بحياتهم ، وتشتيت شمل شيعتهم واتباعهم ، بعد ان يأست تلكم السلطات من استمالتهم ، ووضعهم في فلكهم بكل وسائل الترغيب والترهيب .

لقد تمثلت قيادة القوى الحاكمة في عهد الائمة بالامويين والعباسيين ، وقد عمدت هذه القوى الى تشويه معالم الاسلام ، وتغيير وجهه المشرق بما يندي له الجبين سواء في اسلوب الحكم

وممارسته ، أو على صعيد السياسة العامة الاخلاقية بحيث تجلى في أغلب الاحيان الانحطاط الخلقي ، والهبوط الفاضح في اخلاقيـة الحكم في هذين العهدين - كما يصفه لنا المؤرخون ، واصحاب السير - .

وكان موقف الامامة في وجه هذه السلبيات الخطيرة للدولة الاسلامية عنيفاً للغاية يبرز تارة بالظهور بالسيف ، والعمل المسلح ، كما هو في عهد الامامين علي والحسين عليهما السلام ، او بالحملة الفكرية التي تقضي الكيان الحاكم ، وتهز اركانه ، ومؤسساته ، مما يمثل « الوقـوف الصامد في وجه المزيد من الانحراف وامساك المقياس عن التردي الى الصفر ، والهبوط الى الهاوية »[1] .

دور الامام الصادق (ع) في المسيرة الاسلامية

وبعد ان بينا - فيما تقدم - دور الامامة في

---

١ - المرحوم الصدر - دور الائمة في الحياة الاسلامية / دائرة المعارف الشيعية : ٢/٩٧.

مسيرة الدعوة الاسلامية ، وانتهينا الى ان دورها كان يمثل الضرورة الحتمية لتصحيح المسيرة « لأن انحراف الزعامات القائمة كان يعكس الوجه المشوه للرسالة ، فكان لا بد للقادة من أهل البيت ان يعكسوا الوجه النقي المشرق لها ، وان يؤكدوا عملياً باستمرار المفارقات بين الرسالة والحكم والواقع . وهكذا خرج الاسلام على مستوى النظرية سليماً من الانحراف ، وان تشوهت معالم التطبيق »[١] .

وننتقل الآن الى صلب حديثنا هذا ، والذي يختص بدور الامام الصادق عليه السلام في اطار مسير الدعوة الاسلامية ، ورغم ان هذاالحديث يقتضي السعة في الوقت ، والحرية في البحث ، وانا بين هذين الامرين ، لا أملك منهما القدر الكاف ، ولكن سأبذل جهدي بأن أقدم صورة واضحة المعالم بايجاز مهما أمكن ، فان شخصية الامام الصادق عليه السلام ، واسعة الافاق ،

١ ـ الشهيد الصدر ـ دور الائمة في الحياة الاسلامية/ دائرة المعارف الشيعية : ٢/ ٩٦ .

متعددة الجوانب ، بحيث تميزت عن الائمة ، وقد عرفت الطائفة الامامية من بعده باسمه ، واشتهر بـ« الجعفرية » ، وسيكون حديثي مقتصراً على : إلمامه. .عن شخصيته ثم أسلوبه في اداء دوره ، وبعده منهجه في اعداد الفرد المسلم ، وارجو ان اكون موفقاً في كل ذلك .

اولا ـ شخصية الامام الصادق :

الامام الصادق عليه السلام عاش قرابة قرن واحد في مجتمع حكم من قبل نظامين : الاموي ، والعباسي ، وعانى من تناقضات وسلبيات هذين النظامين الشيء الكثير ، لكنه رغم كل ما لاقاه من محن ونوائب ، فقد تمكن من القيام بعملية تغيير في تفكير الانسان المسلم الذي تلمس طريقه الثقافي في هدى الامام الصادق .

عاش الامام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق ما بين عام ٨٠ أو ٨٣ ـ ١٤٨هـ ، وكانت ولادته ووفاته بالمدينة المنورة ، وقد قضى مع جده الامام زين العابدين ، علي بن الحسين قرابة ثمانية

عشر عاماً ، وكان جده علي معهده الاول في رعايته وتربيته ثم لازم أباه الباقر حتى وفاته سنة ١١٤هـ ، فيكون مع ابيه محمد الباقر تسعة عشر عاماً وتفرد بأمر الامامة من بعده اربعا وثلاثين عاماً .

وقد قضى الامام الصادق ثمانية واربعين سنة من عمره في عهد الحكم الاموي وعاصر جل حكام النظام الاموي ، ابتداء من عبد الملك بن مروان ، وحتى نهاية حكم مروان الحمار ، وكانت هذه المدة مليئة بأحداث عنيفة هزت المجتمع الاسلامي ، ثم عاصر من العباسيين السفاح ، والمنصور ، واغتاله الاخير بالسم بعد مضي عشر سنين من ملكه ، ودفن بالبقيع من المدينة المنورة .

كما عاش الامام الصادق المحن المؤلمة ، والرزايا المفجعة ، وكان عليه السلام يقابلها بصبر وجلد ، فلقد فجع بجده الامام علي بن الحسين ، حيث اغتاله الوليد بن عبد الملك بالسم عام ٩٤هـ ، وكذلك رزء بوفاة ابيه محمد الباقر متأثراً

من السم الذي دسه اليه هشام بن عبد الملك عام ١١٤هـ ، ثم صدم بمقتل عمه زيد بن علي ثائرِ آل الرسول على يد طغاة بني أمية عام ١٢٤هـ ، وما جرى عليه من صلب جسده الشريف ، وحرقه ، وبعد ذلك مقتل ابن عمه يحيى بن زيد على يد ولاة الامويين عام ١٢٦هـ ، وصلبه على باب مدينة الجوزجان الى ان ظهر ابو مسلم الخراساني داعياً للدولة العباسية ، ومنتصراً على الامويين فأنزل جثمانه من موضع صلبه ، ودفنه .

هذا كله الى جانب ما كان يقرع سمعه من انباء مفجعة في أهل بيته وشيعته ، « فقد ملأوا بهم السجون ، وصبغوا من دمائهم الارض ، وأهتزت بأجسادهم المشانق »[1] .

والى جانب هذه الاحداث ، والمحن ، فقد كان عهد الامام الصادق زاخراً بالثورات والانتفاضات العقائدية ، والسياسية ،

١ ـ أسد حيدر ـ الامام الصادق ، والمذاهب الاربعة : ٤/ ٢٨٧ .

والذي اشتهر في كل فن من فنون العلم فكان له المركز الاعلى فيه .

وقالت عنه بعض المصادر : بانه رجل رحب أفق التفكير ، بعيد اغوار العقل ، ملم كل الالمام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع اول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الاسلام ، ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين اصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الانحاء القاصية (١) .

واذا كانت مدرسته العلمية قد عرفت في المدينة المنورة ، وقصدها كبار اهل العلم للاستفادة ، فليس معناه انها هي الاولى والاخيرة ، انما كان للكوفة سهم وافر في ابراز معالم الحركة الفكرية الاسلامية بزعامته وتأسيس تلامذته ، وحين توافد عليه ـ الى المدينة ـ عدد من

رجـالها ، وانتهلوا من نميره ، واستفـادوا من علمه ، فعادوا واسسوا مدرستها العلمية .

والكوفة وان لم تحظ بموطن دائم للامام الصادق عليه السلام ، كما هو حال المدينة الا ان لها العناية الكبيرة في نفسه ، فقد كان يرعاها بزياراته للعراق ياقامة فيها واهتمام وافر لمدرستها العلمية ، فقد كان العديد من اعلامها هو من طلابه الذين وفدوا عليه في المدينة ، وتلمذوا عليه ، واخذوا يروون عنه ، حتى نقل مرة عن علي بن الوشا انه قال : « أدركت في هذا المسجد (يعني مسجد الكوفة) تسعمائة شيخ كل يقول : حدثني جعفر بن محمد »[1] ، كما نقلت الرواية : لقد شوهد الامام الصادق عليه السلام ذات مرة في مسجد الكوفة بين خلق كثير من الشيعة يعظهم[2] . ولعل ظهور مدرسة الامام الصادق في

---

١ ـ حسن الامين ـ دائرة المعارف الشيعية : ٢ / ٧٧ عن السيد امير علي الهندي صاحب كتاب مختصر تاريخ العرب .

٢ ـ الكشي ـ الرجال : ٢٨٠ .

محدث زمانه ، ومحمد بن اسحاق صاحب المغازي والسير ، وشعبة بن الحجاج الازدي - من أئمة السنة واعلامهم - وابو ايوب السجستاني ، من كبار الفقهاء التابعين ، الى غير ذلك من ائمة المذاهب الفردية والجماعية في الفقه والحديث ، الى جانب كبير من مشاهير ثقات رواة وفقهاء الشيعة[1] .

كما يعتبر من أهم الانجازات الفكرية التي حققها الامام الصادق هو : انه وضع اساس التأليف في الاسلام ، فانطلق الناس بعده يؤلفون ويدونون تبعاً لتعليماته ، ولم يكن تأليف الكتب معروفاً قبل ، بل كان نادر الوقوع ، فاذا به ينهض بهذا العبء ، ويحرض على التدوين والتأليف ، ويكون هو البادىء بذلك ، ثم يتداعى طلابه إلى التدوين ، والتأليف حتى يبلغ عدد ما ألفّوه أربعمائة كتاب ،

---

١ - المرحوم الشيخ محمد حسين المظفر - الامام الصادق ٢/١٣٢ - ١٧٨ .

لاربعمائة مؤلف ، وتبرز دعوته الى التدوين بمثل قوله لتلاميذه : « أكتبوا فانكم لا تحفظون حتى تكتبوا » ومثل قوله للمفضل بن عمر : « أكتب وبث علمك في اخوانك فان مت فورث كتبك بنيك »[1] .

وبعد هذا كله : لم يكن الامام متخصصاً في فرع من العلوم ، أو ناهجاً منهجاً فلسفياً خاصاً ، انما كان العالم في تلك القرون هو : « معلمة عصره ، يجد اتباعه عنده : الادب والعلم بالاخبار ، والاحاطة بالسنة النبوية ، والاطلاع على التفسير الى جانب المعرفة بالمذاهب الفلسفية ، وخلاصة الاراء في الطب ، والرياضيات ، والفلك ، والكيمياء كما يجدون عنده بصراً باسرار النحو ، والصرف والبيان ، ورواية واسعة للغات القبائل العربية ولهجاتها المختلفة . . . والامام الصادق كان من ركام هذه المعارف في القمة ، بل كان الاية الاولى في عصره . . . والنموذج لانسانية

١ ـ حسن الامين ـ دائرة المعارف الشيعية : ٢ / ٨١ .

المعرفة في العصر الاسلامي الذهبي ، بل بداية رائعة له ، ولقد كانت جهوده في نقل التراث الفكري والديني الى الاجيال من بعده جهود فائقة الاثر ، بالغة القيمة »[1] .

هذه هي ملامح شخصية الامام الصادق (ع) أوجزتها برؤوس سطور يمكن ان نستفيد من خلالها أمرين مهمين :

الاول ـ ان الامام الصادق (ع) سلك في تحقيق اهداف الاسلام الكبرى ، وبناء مجتمعه الانساني اسلوباً فكرياً بحتاً ، بحيث تخلى عن الصراع المسلح ، الذي اختطه الامام الحسين (ع) في صراعه مع قوى الطغيان والظلم ، والاستكبار الحاكمة حينذاك سواء اكانت في العهد الاموي او العباسي .

الثاني ـ انه عليه السلام أسس مدرسة فكرية ، تميزت عن كل المدارس التي عاصرت

---

١ ـ رمضان لاوند ـ الامام الصادق : علم وعقيدة : ١٦٦ ـ ١٧٣ .

مدرسة أئمة آل البيت (ع) ممن سبقوه، واسعة الافاق، متعددة الجوانب، حتى قال عنها الجاحظ - من أعلام الادب العربي - : «فجر الامام الصادق (ع) ينابيع العلم، والحكمة في الارض، وفتح للناس أبواباً من العلوم لم يعهدوها من قبل، وقد ملأ الدنيا بعلمه»[1].

ولكل من هذين الجانبين عوامل واسباب، نرجو ان نوفق للبحث عنها ولو بايجاز، لنتلمس الحكمة التي كانت تكمن وراء اختيار الامام لهذا الاسلوب الذي اختطه في بناء الدولة الاسلامية؟

ثانياً - أسلوب الامام الصادق في اداء دوره:

الامامة: دين ودولة، ولا يمكن انفكاكهما، لتلازمهما في مرحلة العمل الاسلامي البّناء على كل الاصعدة، والمستويات، ولقد افادت سيرة ائمة آل البيت عليهم السلام في اداء رسالة الدعوة ان منصب رئيس الدولة الاسلامية يقتضي ان يكون ممن له حق التشريع، او من ينوب عنه، طالما ان

---

١ - السندوبي - رسائل الجاحظ: ١٠٦.

الامامة ضرورية رسالية في مسيرة الدعوة ، عند انتهاء دور النبوة ـ كما تقدمت الاشارة الى ذلك في الفصل الاول من المحاضرة ـ سواء أكان ذلك في نطاق التشريع ، او اطار السياسة العامة للدولة الاسلامية .

ومسيرة الدعوة الاسلامية من خلال عهد أئمة آل البيت ، وعلى الصعيد السياسي والفكري أوضحت لنا اتجاهين واضحين لقيادة الامة ، وممارسة دور الامامة :

الاول ـ الاتجاه السياسي :

وهذا الدور تبناه عدد من الائمة ، وهم : الامام علي ، وولداه الحسن والحسين ، والامام الرضا ـ ثامن الائمة ـ وقد تولى مقاليد الحكم منهم الامام علي ، وولده الحسن ، وتولى الامام الرضا ، مسؤولية الحكم في عهد المأمون العباسي وبرغم ان مدة الحكم لهم متفاوتة ، لكنها تميزت لكل منهم بجوانب خطيرة أدت بالبعض منهم الى سلوك الجهاد المسلح في تثبيت قواعد الحكم للدولة الاسلامية

الفتية ، كما هو الحال في عهد الامام علي (ع) والذي دام خمس سنوات ، تخللتها ثلاث حروب عنيفة ، حرقت الاخضر واليابس ، اضطر لها الامام اضطراراً ، وذلك في حرب الجمل ، وصفين ، ونهروان ، وتجاوز عدد القتلى فيها الى عشرات الالاف من الطرفين المتقاتلين ، الى غير ذلك من ركام الجرحى ، والمصابين فيها .

ثم تولى الامام الحسن (ع) أمر الخلافة ، ومسؤولية الامة ، ولم يترك له معاوية الفرصة في ممارسة حكم الدولة ، واعلن عليه العصيان ، وزحف بجيشه من الشام لمحاربته واضطر الامام للتحرك المسلح لمجابهته ، لكن الحركة اخفقت بسبب ضعف الوازع الديني عند السواد الاكبر من جيش الحسن ، والروح التخاذلية عند البعض ، اذ لم يبق معه في ميدان المعركة الا صفوة ، ما كان يمكنه القيام معها بحرب ، فاضطر الى عقد « اتفاقية هدنة » مع جيش معاوية ، لكي يتمكن بعد ذلك اعادت تركيبة جيشه ، ويهيأه لحرب مقدسة ضد

الباطل ، لكن معاوية اغتاله بالسم ، قبل تمكنه من اداء رسالته الجهادية .

وكان الامام الحسين (ع) وهو الوارث الشرعي للخلافة ومسؤولية قيادة الامة يرتقب الفرصة للثورة ضد النظام الاموي المنحرف عن خط الاسلام ولم يريدا من اعلان الثورة التصحيحية الجهادية لمسيرة الدعوة في بداية عهد يزيد ، رغم قلة العدة والعدد ، وكان يوم « عاشوراء » دامياً وعنيفاً ، تجلت فيه روح التضحية البطولية للدفاع عن شرف الدعوة المباركة، وتقويم الانحراف الذي اصابها بسبب القيادة الباطلة التي استولت على زمام الحكم . ورغم ان الحسين (ع) خسر المعركة عسكرياً ، ولم يتمكن من اعادة الحكم للسلطة الشرعية ، وذلك لعدم توازن القوى المتحاربة في كربلاء حينذاك ، لكنه كسب المعركة سياسياً ، اذ هزّ النظام الاموي مباشرة بعد ذوبان نشوة الانتصار عند الجانب الاموي نتيجة المآسي الانسانية ، والممارسات اللاخلاقية التي رافقت معركة كربلاء ،

ثم ما افرزته ـ بعد ذلـك بفترة قصيـرة ـ من انتفاضات وحركات جهادية مسلحة ضد الحكم الاموي . كحركة التوابين ، والمختار وانتفاضة زيد ابن علي ، بما اسفرت عن وجه النظام المشوه ، وانحرافه عن خط الاسلام .

واخيراً وفي دور العمل السياسي لائمة آل البيت تولى الامام علي بن موسى الرضا ولاية العهد في حكم المأمون العباسي في فترة قصيرة لم تتجاوز الثلاث سنين ، ولم تكن هذه الحركة من المأمون العباسي ايماناً منه بأحقية الرضا باضطلاع المسؤولية في قيادة الامة انما كان اضطراراً ومناورة منه في تخفيف الضغط عليه ، بسبب الحركات العلوية المسلحة التي رافقت حكمه ، وهو بعمله هذا كان يهدف للقضاء عليها ، او على الاقـل تخفيف حدتها ، وذلك بتعيين عميد العلويين ـ حينذاك ـ وسليل الامامة فيهم ومن جملة تلكم الانتفاضات :

١ ـ حركة محمد بن ابراهيم الحسـين ، المعروف بابن طباطبا العلوي ، وقد خرج من المدينة

الى الكوفة ، واعلن حركته فيها ضد النظام العباسي ، والتفت الجماهير حوله ، بعد ان وجدته يدعو الى الرضا من آل محمد ، ووقفت الكوفة مع ابن طباطبا موقفاً بطولياً دافعت عن حركة قائدها العلوي ، واهدافه الثورية ضد النظام المنحرف ، وتمكن العباسيون بعد جهد من القضاء على قائد هذه الحركة ، ولكن عماله من العلويين استقلوا بالحكم في المناطق التي كانوا يتولونها ، ورغم تتبع الجيش العباسي ، فان القاعدة الشعبية لها كانت تنمو بطراد .

٢ ـ حركة ابراهيم بن موسى بن جعفر في اليمن ، واستولى على السلطة ، وطرد عامل المأمون منها .

٣ ـ وفي المدينة وثب الحسن بن الحسين بن علي بن الحسين المعروف بالافطس ودعا الى ابن طباطبا فلما انهارت حركته ، دعا لنفسه ، وسار منها الى مكة في موسم الحج واستجابة له الجماهير ، واعلن رفض النظام العباسي .

٤ ـ وفي البصرة اعلن زيد بن موسى جعفر ـ والمسمى بـ« زيد النار » لكثرة ما أحرق بالبصرة من دور العباسيين واتباعهم ـ وعلي بن محمد بن جعفر ابن علي بن الحسين رفض الحكم العباسي ، وتبعتهما الناس ، ولم يتمكن الجيش العباسي من اخماد هذه الحركة الا بعد ان امنوا زيد بن موسى ، فاطمئن الى ذلك ، وعندها قبض عليه ، وأرسل الى الحسن بن سهل من حكام المأمون فقتله[١] .

هذه مجمل الحركات والانتفاضات التي ظهرت في الساحة الاسلامية في عهد المأمون العباسي ، وكان موقف الامام الرضا ـ وهو يتسلم قيادة الامة وممارسة مسؤوليتها بعد وفاة ابيه الامام موسى بن جعفر ـ ، وانطلاقاً من متغيرات عصره ، ان يتظاهر بمعارضته للحكم ، ومحاولته لتصحيح المسيرة منذ عهد هارون الرشيد العباسي ، مما دعى ببعض شيعته ان يكلموه في

---

١ ـ راجع : السيد هاشم معروف سيرة الائمة الاثني عشر : ٢/٣٩٥ وعادل الاديب ـ الائمة الاثنا عشر : ٢٠٠ .

ذلك خشية على حياته ، يقول صفوان بن يحيى : « لما مضى ابو الحسن موسى وتكلم الرضا (ع) خفنا عليه من ذلك ، وقلنا له : إنك أظهرت أمراً عظيماً ، وانا نخاف عليك من هذا الطاغي (يعني هارون الرشيد) ، فقال : يجهد جهده فلا سبيل له علي »[1] . ومرة اخرى يقول محمد بن سنان - احد اتباع الرضا وشيعته - : « قلت لابي الحسن الرضا (ع) أيام هارون : انك قد شهرت نفسك بهذا الامر ، وجلست مجلس أبيك ، وسيف هارون يقطر دماً »[2] .

وحين تفاقمت الانتفاضات والحركات في وجه المأمون العباسي ، وهزت حكمه ، ولاحظ ان دولته مهددة بالاخطار ، والتمرد عليها ، وانها بقيادة العلويين اضطر الى استمالة الامام بمشاركته في الحكم ، والتقرب اليه بأي وسيلة كانت ، سواء كانت بالوعيد أو التهديد[3] ، وكيفما كان فقد وافق

١ - الكليني - الكافي : ١/٨٧.
٢ - الكليني - روضة الكافي : ٢٥٧ .
٣ - المفيد - الارشاد : ٢٩٠ وابو الفرج - مقاتل الطالبيين : ٣٧٥ .

الامام علي المشاركة بحذر ، وتدبر كولي للعهد ، وبشرط ان لا يمارس المسؤولية ، لانها مشاركة فعلية في الحكم ، وهو اعتراف صريح منه بصحة الحكم ، وهذا مخالف الحقيقة ، اذ النظام العباسي - في رأي الامام ، والذي عليه الشيعة - مغتصب لهذا المنصب ، وان الرضا هو الوارث الشرعي له دون غيره . ولذا نرى ان النظام عندما ارسل الى الكوفة ، طالباً من اهلها اخذ البيعة للامام الرضا (ع) بولاية العهد رفضت الجماهير الشيعية المنتفضة الثائرة لحق آل البيت - عليهم السلام - المغصوب ، وقال قائلهم : انهم لا يبايعون الرضا بولاية العهد ، انما يبايعونه بالخلافة[1] .

وعلى كل حال : فقد تولى الامام الرضا (ع) - ولاية العهد ، « وبالفعل نجح المأمون في هذا التدبير ، فلم يحدث التاريخ بأن أحداً من العلويين خرج على المأمون ، او تحرك ضده خلال السنتين اللتين عاشها الامام (ع) بعد

---

١ - عيون اخبار الرضا : ٢/١٤١ .

ولاية العهد مراعاة لجانب الامام »[1] . وعسى ان نوفق لبحث هذا الموضوع بشيء من التفصيل في مناسبة اخرى نظراً لاهميته .

ومن خلال هذه الصورة الموجزة لدور هؤلاء الائمة الاربعة يتضح لنا ان الممارسة الفعلية لدور قيادة الامة في الاطار السياسي انحصرت في حكم الامام علي (ع) الـذي أرسى قواعـد الدولـة الاسلامية ، غير ان انهماكه وانشغاله في الحروب الثلاث أدت الى عدم تمكنه من ابراز الصورة الواضحة للحكم الاسلامي

الثاني ـ الاتجاه الفكري :

وهذا الدور بدء مع الامام علي بن الحسين ، ثم باقي الائمة ، الذين مارسوا دور القيادة في الامة من اتجاه فكري ، بلغ ذروته في عهد الامام الصادق (ع) .

وان الخط البياني لهذا الاتجاه وان كان قد بدأ منذ عهد الامام علي (ع) وممارسته لدور قيادة

---

١ ـ السيد هاشم معروف ـ سيرة الائمة : ٢/٣٩٦ .

الامة ، سواء كان في الحكم ، او قبله ، وكذلك الامام الحسن خاصة بعد عقد اتفاقية الهدنة مع معاوية،وعهد الامام الحسين ، لكن طابع ادوارهم كان سياسياً باعتبار ان الامامين : علي والحسن قد تسلما مقاليد الحكم فغلب عليهما الطابع السياسي ، اما الامام علي بن الحسين ، فهو بعد واقعة كربلاء ، وتلك المآسي الفظيعة التي شاهدها ، وتقاعس السواد العام من الامة عن نصرتهم ، كان كل ذلك دافعاً له لبث الوعي الاسلامي المسؤول في الجماهير وتوعية القواعد الشعبية من خلال التثقيف الفكري ، ونجح في هذا المضمار حتى اصبح منزله ومسجده مدرسة يزدحم فيها الطلاب عليه ، واصبح تلامذته فيما بعد بناة الحضارة الاسلامية ، ورجال فكرها وتشريعها ، وأدبها الاسلامي ، في شتى انحاء البلاد الاسلامية[1] .

واذا كانت الظروف القاسية ، والتي مثلت قمة الانحراف عن الخط الاسلامي والجماهير

---

١ ـ حسن الامين ـ دائرة المعارف الشيعية : ٢/٦٦ .

السذاجة والمغلوب على أمرها ، قد دفعت بالامام علي بن الحسين (ع) الى عدم ممارسة دوره القيادي في الاتجاه السياسي ـ كما يقتضي الظرف ـ واضطره الى الاتجاه الفكري ، وهو الخط الثاني ، فانها نفسها أملت على ولده الامام الباقر (ع) عند توليه قيادة مسيرة الدعوة ، بعد وفاة ابيه ان يسلك هذا الاتجاه ، ويشتهر فيه ، واصبحت داره في المدينة مدرسة يجتمع المئات من طلاب العلوم فيها للاستفادة من علم الامام الباقر ، وفي شتى انواع المعرفة ، ورغم ان قادة النظام الاموي كانوا يتلمسون مدى نفوذ الامام الباقر الواسع في قلوب المسلمين ، ومدى تعاطف الجماهير معه ، وكان يحز في نفوسهم ذلك ، ولكن لا سبيل لهم على مجابهة هذا الافق الكبير في دنيا المعرفة ، الا بتصفيته من عالم الوجود ، بامر من هشام بن عبد الملك عام : ١١٤هـ ، وبطريقة السم . ثم باقي الائمة عدا الرضا ، والحجة عليهما السلام .

وعندما استقل الامام الصادق بالقيادة تابع مسيرة ابيه في ارساء الفكر الاسلامي على اوسع

نطاقه ، وبلغت مدرسة آل البيت الفكرية ذروتها في مجدها العلمي ـ كما اشرنا الى ذلك في الحديث عن شخصية الامام الصادق ، ولما استتب الامر للنظام العباسي ولاحظ ان خطر الامام الصادق بدأ يظهر بوضوح عليهم ، قرر المنصور اغتياله ، ونفذ ما اراد عام : ١٤٨هـ .

وتابع الامام موسى بن جعفر مسيرة ابائه في التركيز على التوجيه الفكري للجماهير الملتفة حوله من شيعته ورواد مدرسة آل البيت الفكرية ، مع انه لم يترك الجانب السياسي تماماً رغم انه قضى قسطاً من حياته في سجن هارون الرشيد ، ومع هذا أيّد الحركات المعارضة للنظام العباسي بصورة سرية ، ويكفي انه رثا الحسين بن علي بن الحسن ـ صاحب واقعة فخ الشهيرة ـ حين بلغه بناء مقتله ، قال : « إنا لله وانا اليه راجعون ، مضى والله مسلماً صالحاً صواماً قواماً ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، ما كان في أهل بيته مثله »[١] .

ثم قامت محاولة من قبل جهاز النظام

١ ـ ابو الفرج ـ مقاتل الطالبيين : ٤٥٣ .

العباسي في احتواء وضم مدرسة آل البيت الفكرية اليهم ، والتي باتت تهدد مراكز حكمهم ، وذلك بتبني ائمة هذا البيت ، كما حدث للامام الرضا (ع) بان عهد اليه المأمون العباسي بولاية العهد ، ثم بعد تصفيته عمد الى ولده الامام محمد الجواد ، وأصر عليه ان يزوجه ابنته « أم الفضل » مستهدفاً بذلك حجز الامام وعزله عن قواعده الشعبية ، ولكن لم ير بداً من زواجه بابنة المأمون ، حفاظاً على نفسه وعلى شيعته ، غير انه ابى الا السفر الى المدينة ، ليكون بعيداً عن المأمون ، ويتمكن من ممارسة دوره في قيادة الامة ، وفعلا حقق ذلك ، واصبح في المدينة مركزاً للفقهاء من شتى الانحاء وشعر المعتصم العباسي ـ بعد المأمون ـ بخطر الجواد ، فما كان منه الا ان جلبه بالقوة الى بغداد وقتله بالسم عام ٢٢٠هـ او ٢٢٥.

واستمر الامامان علي الهادي والحسن العسكري في هذا الاتجاه الفكري ، وتوعية الجماهير بعد الامام الجواد (ع) وكشف انحراف السلطة العباسية عن خط الدعوة السليم .

ولما ضاق حكام العباسيين ذرعاً من نشاطهما العقائدي ، ضيقا عليهما الخناق ، واخيراً اغتيل الامام الهادي (ع) بامر من المعتز العباسي عام : ٢٥٤هـ ، بالسم ، كما صفى بنفس الطريقة الامام الحسن العسكري عام : ٢٦٠هـ بأمر من المعتمد العباسي ، وبهما انتهى دور الامامة الظاهر ، ليبدأ دور الامام الغائب .

ان ائمة آل البيت ، الذين سلكوا هذا الاتجاه الفكري في ممارسة دور الامامة « لم يكونوا يرون الظهور بالسيف ، والانتصار المسلح آنياً كافياً لاقامة دعائم الحكم الصالح على يد الامام ، وان اقامة هذا الحكم وترسيخه لا يتوقف في نظرهم على مجرد تهيئة عسكرية ، بل يتوقف قبل ذلك على اعداد جيش عقائدي ، يؤمن ايمانا مطلقاً ، ويعي اهدافه الكبيرة ، ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ، ويحرس ما يحققه للامة من مكاسب »[1] .

وقبل ان ننتقل الى تحديد موقع الامام

---

١ ـ الشهيد السيد الصدر ـ دور الائمة في الحياة الاسلامية / دائرة المعارف الشيعية : ٢/٩٧.

الصادق عليه السلام من هذين الاتجاهين ـ بعد ان عرضناهما بايجاز ـ يجب ان لا يغرب عن البال ان دور الامامة كان يجمع بين هذين الاتجاهين ، وكان موقع كل منهم واضحاً عند ممارسته لهذه المهمة ، لكن الطابع العام ، لأي من الاتجاهين : السياسي ، والفكري ، كان يطغى الى درجة التحديد في البعض دون البعض الاخر .

ومن هذا المنطلق نحاول ان نعالج موقف الامام في كل من هذين الاتجاهين بما يتسع لنا الوقت .

أ ـ الامام الصادق والعمل السياسي :

قد يكون واضحاً اننا في مجال تحديد الاتجاهين : السياسي ، والفكري قد صنفنا الامام الصادق (ع) في الاتجاد الفكري ، نظراً لبروزه الكبير في هذا المضمار . ومعناه الظاهري ان الامام لم يسهم في الاتجاه السياسي بموقف يحدد معالم دوره فيه . غير ان هذا الافتراض يتم لو وجدنا الامام قد تخلى عن هذا الجانب لسبب وآخر ، ووجه نشاطه العملي في ممارسة دوره في قيادة الامة في

الجانب الفكري فحسب ـ ومع انه أمر قد لا يكون أقل شأناً وتضحية من العمل السياسي ، او اكثر فعالية ، وازخر عطاء في حساب التقييم ـ لكن ذلك خلاف الحقيقة ، كما سنرى . . . ـ

وكما أشرت سابقاً ان ائمة آل البيت مارسوا الجانبين في آن واحد طيلة اعمارهم ولكن طغيان جانب على الآخر، هو الذي دعا الى هذا التصنيف ، تبعاً لظهورهم في أحد الاتجاهين بصورة أظهر .

إن من أولويات مهام الامام الصادق (ع) أو أي واحد من ائمة آل البيت هو تسلم مقاليد الحكم للدولة الاسلامية ، بصفتهم ، أوصياء من الله سبحانه على رعاية عباده ، ولا يجوز لهم التخلف عن القيام بهذه المهمة ، الا بعد ان تحكم الضرورة بذلك ، كما حدث للامام علي ـ عليه السلام ـ عندما اضطر الى ابتعاده عن استلام الحكم ، فكان امامه خياران : اما الجهاد ضد معارضيه ، وتحكيم السيف بينهما بعدما يأس من اعادتهم الى طريق الحقيقة بالمحاججة ، والكلام ،

ـ وهذا الاسلوب تحفه المخاطر ، أقل ما يحتمل فيه تشتيت وحدة المسلمين الى تيارين متعاكسين ، واعادة روح الجاهلية الباطلة الى نفوس سواد المسلمين ، بعد ان يشهدوا علية الصحابة وقادتهم يتطَاحنون على الحكم . أو السكوت على الحق المضاعِ ـ وهو مكره على ذلك ، ومضطر اليه ـ حفاظاً على بيضة الاسلام ، ووحدة المسلمين . .

وتبعه في هذا الموقف الامام الحسن (ع)، اذ اضطر الى تجميد مهام مسؤولياته القيادية ، بعد أن رأى نفسه وحيداً في المعركة ، إلا عن صفوة لا يتمكن بهم حتى من رد غائلة القتل عنه .

والامام الصادق عندما تولى دور القيادة ، وممارسة مهام الامامة ، كانت كل الظروف المحيطة به لا تساعده على الجهاد المسلح ضد الباطل ، وان اي ثورة دامية قد تقضي على قـادة المسيرة ، واجتثاث قواعدها الشعبية ، ويمكن ان نضع بعض نقاط لكشف الظروف المحيطة بذلك .

اولا ـ كانت السياسة الحاكمة في الساحة

الاسلامية في عهد الامام الصادق في الفترة الاولى ، تمثل النظام الاموي ، فقد ادرك عليه السلام كثيراً من حكامهم ابتداء من عبد الملك بن مروان حتى نهاية مروان الحمار ، أي انه عاصر تسعة حكام منهم واذا كانت ثلاث سنيه الاولى من عمره قد رافقت أواخر حكم عبد الملك بن مروان ، فانه عاش ايام حكم بقيتهم بكل وضوح وجلاء ، وكانت هذه المدة التي لا تقل عن ثمانية واربعين عاماً ـ في عهد النظام الاموي مليئة بالاحداث ، والمصائب ، والمحن ، التي مرت على شيعة آل البيت خاصة ، وكان حالهم ـ على الاعم الاغلب ـ السوق الى الموت فرادى او جماعات ، هذا بخلاف التشريد والارهاب والعسف الاجتماعي ، ورغم ان هذه العوامل تدعو الى تكتيل المضطهدين ، والمتضررين من النظام ، في وحدة جماهيرية تكون قاعدة لثورة عارمة ، كما فعل زيد بن علي ، وغيره من الثائرين العلويين لكن مقياس الامام كان يختلف عن غيره في دفع

الجماهير الى ثورة عارمة دون حساب دقيق في موازين النصر والفشل ، وكان يعلم ـ عليه السلام ـ ان الناس ملت الحرب ، وان القائل منهم يقولَ : ماذا لقينا من آل علي ، ان أجبناهم قتلنا واذا عاديناهم دخلنا النار[١] .

ومرة يدخل عليه احد اصحابه ، ويقول له : يا ابن رسول الله : « والله ما يسعك القعود ، فقال : ولم يا سدير ؟[٢] قلت : لكثرة مواليك وشيعتك وانصارك ، فقال : وكم عسى ان يكونوا ؟ قلت : مائة الف ، قال : ومائة الف؟! ، قلت : ومائتي الف ، قال : مائتي الف؟! ، قلت نعم : ونصف الدنيا ، قال : فسكت (الامام) عني . . . وذهبا معا الى ينبع ،

---

١ ـ اسد حيدر ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة : ٢٨٦/٤ .

٢ ـ سدير بن حكيم بن صهيب الصيرفي الكوفي ، مولى ، من رواة الائمة : علي بن الحسين ، والباقر ، والصادق ، وممن مدحه وقدره الامام الصادق . راجع (المظفر ـ الامام الصادق : ١٥٤/٢) .

فقال له الامام ـ وهو ينظر الى قطيع من الجداء ـ[1] : والله يا سدير لو كان لي شيعة بعدد هذا الجداء ما وسعني القعود »[2] .

وهذان النصان يوضحان لنا روحية شيعة آل البيت ـ في ذلك العهد ـ ومدى استعدادهم للجهاد والصدام المسلح ، ولعل منشأ هذا التخاذل ، الذي يشير اليه الامام هو :

أ ـ إما ضعف الوازع الديني في نفوس الامة ، وعدم ترسخه فيهم ترسيخاً إيمانياً عالياً . بما يدفعهم الى الجهاد في مقارعة الانحراف ، والتضحية من اجل محاربة الباطل .

ب ـ اوكل الناس من شيعة آل البيت من التشكيل والاضطهاد الأموي، واليأس المرير الذي استولى على نفوسهم من عدم امكان ازاحة النظام الحاكم ، لأساليبه الفتاكة في قمع التحرك المعارض

---

١ ـ الجدي ـ ولد المعز الذكر في سنته الاولى . راجع : (الشرتوني ـ اقرب الموارد : مادة ـ جده) .

٢ ـ الكليني ـ الكافي : ٢٤٢/٢ .

لاساليبه الفتاكة في قمع التحرك المعارض .

ثانياً ـ ان الفترة الثانية لعهد الامام الصادق مثلت الحكم العباسي . وقد عاصر الامام بدايته ، وعاش مع حاكمين منهم : ابو العباس السفاح ، والمنصور الدوانيقي ، ورغم ان الحركة العباسية ما كانت تنجح ، وتصل الى مقاليد الحكم ، لو تخطت استغلال رفع شعار « الحكم لآل محمد » وكان عميد آل البيت ، وسليل الامامة ـ حينذاك ـ هو الامام الصادق (ع)، ومن الطبيعي ان اي حركة انقلابية ، او انتفاضة مسلحة تقوم ضد السلطة الحاكمة لا بد ان تحظى بتأييد من الوريث الشرعي لامامة العصر ، ونظراً الى « ان آل البيت كانوا يمثلون اقوى الاحزاب المعارضة للسياسة الاموية من ناحية (اخرى) ، فضلاً عن تبنيهم قضية العدالة الاسلامية »[1] . لهذا كانت الحركة العباسية في بادىء امرها ، قد

---

١ ـ عادل الاديب ـ الائمة الاثنا عشر : ١٨١ نقلا عن : محاضرات في التاريخ الاسلامي ـ للاعظمي : ٢٢/٣ .

اعلنت موقفها من الحركة العلوية ، وقادتها ، تأييداً وتضامناً من اجل اسقاط النظام الاموي ، كما اخفت مسعاها الحقيقي عنهم ـ وهو الاستيلاء على الحكم ـ، وذلك لغرض كسب التعاطف الجماهيري ، الذي كان يملكه العلويون ولقد كتب ابو مسلم الخراساني الى الامام الصادق (ع) في ابان تحركه ضد النظام الاموي جاء فيه : « إني اظهرت الكلمة ، ودعوت الناس عن موالاة بني امية الى موالاة اهل البيت ، فان رغبت فلا مزيد عليك »[1] . ولما لم يستجب الامام لدعوة الخراساني ، لعلمه مسبقاً ان الدعوة مبطنة ، وما هي الا وسيلة للوصول بها الى منصة الحكم ، وهذا لا ينافي ان ابا مسلم ، كان صادقاً في قوله ، لكن اسياد الحركة كانوا يظهرون غير ما يبطنون . ولذا فانهم يأسوا من تعاون الامام الصادق لجأوا الى غيره من سادات العلويين ، كعبد الله بن الحسن ، وولده محمد ـ ذي النفس الزكية ـ .

---

١ ـ الشهرستاني ـ الملل والنحل : ٢٤١/١ .

وكيفما كان فقد انهار النظام الاموي ، واستولت الحركة العباسية على الحكم نتيجة الغليان الجماهيري في الساحة الاسلامية ضد الحكم الاموي المنحرف ، وسلطته العاتية ، وما ان تثبت قدم العباسيين بالحكم ، حتى قلبوا ظهر المجن لشركائهم في اسقاط الامويين ، وعاملوهم بقسوة وعنف ، دونه الاضطهاد الاموي وقسوتهم .

تقول بعض المصادر في هذا الصدد :

« وبادىء ذي بدء تجدر الاشارة الى ان البيت العباسي لم يضع أصول الدعوة ، ولم يبذر بذورها ، وانما الظروف وحدها هي التي ساقت اليه قيادة نظام سري محكم له أجهزته ودعائه ، واتباعه ، فجنوا ثماراً زرعها بنو عمهم العلويون ، وركبوا موجة المد الثوري - كما يقال - وقلبوا ظهر المجن للرواد الذين امتحنوا اشد المحن من أجل ارساء هذا النظام السري المحكم »[١] .

١ - عادل الاديب - الائمة الاثنا عشر : ١٨١ - ١٨٢ نقلا عن : الحركات السرية : ٦٦ .

ولنا ان نتسائل عن السبب الذي دعا بالامام الصادق ان لا ينهض ـ ولو بالقوة ـ لاستلام مقاليد الحكم ، في مثل هذه المرحلة الانتقالية بين النظامين : الاموي والعباسي ؟ وقد تكون مبررات الثورة مهيأة له ـ حينذاك ـ والجواب قد لا يكون عسيراً ، اذا ما اخذنابعين الاعتبار ما يلي :

١ ـ ان الظروف الموضوعية التي تحيط بالامام الصادق ـ ذلك الوقت ـ كانت تمثل سلوكاً جمعياً غير واع لقضية الاسلام الكبرى ، وانما كل هدفه اسقاط النظام الاموي ، الذي ارهق كاهل المسلمين عسفاً ، وظلماً . ومثل هذه الثورة الجامحة غير مضمونة النتائج لصالح المسيرة الاسلامية وبناء المجتمع الصالح لانها تتأثر بكل مقومات الاغراء والترهيب او تنكفأ عندما تعلوها موجة ترهيب .

٢ ـ الواقع الفاسد الذي طغى على المجتمع في نهاية الحكم الاموي ، ونشاط الحركات الهدامة ـ كالزندقة ، والتيارات الالحادية : باسم المانوية ، والمزدكية ، والزرادشتية وأمثال ذلك ـ سببت

تفشي اللااخلاقية في صفوف السذج من الناس ، الامر ادى الى فقدان الثقة بالروح الاسلامية الجماهيرية وبالتالي الى زعزعة الوفاء والصدق والاخلاص في محور المجابهة والصدام الدامي .

ومع كل هذه السلبيات والمفارقات التي اشرنا ، فان الامام الصادق (ع) ما كان يتوانى عن تأييد الحركات والانتفاضات التي تتفجر في وجه النظام الاموي حتى ذكر مرة بين يديه من خرج من آل محمد (ص) ضد الحكم الاموي ، فقال : « لا ازال انا وشيعتي بخير ما خرج الخارجي من آل محمد ، ولوددت ان الخارجي من آل محمد خرج وعلى نفقة عياله »[1] .

كما نقل عن الامام الرضا عليه السلام انه قال : « حدثني ابي موسى بن جعفر» ، انه سمع اباه جعفر بن محمد يقول : « رحم الله عمي زيداً ، انه دعا الى الرضا من آل محمد ، ولو ظفر

---

١ ـ الشهيد الصدر ـ بحث في الولاية :

لوفى لله من ذلك ، إنه قال : أدعوكم الى الرضا من آل محمد »[1] .

وعندما بلغه مقتل عمه زيد « حزن له حزناً عظيماً حتى بان عليه ، وفرق من ماله في عياله ، ومن أصيب معه من اصحابه ألف دينار »[2] .

كما انه عليه السلام كان يتابع حركة بني الحسن بقيادة محمد ذي النفس الزكية قد نصحه ان لا يغامر بقبوله دعوة ابي مسلم الخراساني للبيعة له ، لانه غير واثق من صدقها ، حتى قال لعبد الله بن الحسن : « يا ابا محمد ، ومتى كان اهل خراسان شيعة لك ؟ أنت أرسلت ابا مسلم الى خراسان ؟ ، أنت أمرته بلبس السواد ؟ ، وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم ، أو وجهت فيهم ، وهل تعرف أحداً منهم ؟ »[3] .

هذا النص صريح بأن الامام الصادق ما

---

١ ـ الشهيد الصدر ـ المصدر المتقدم :

٢ ـ المفيد ـ الارشاد : ٢٥٢ .

٣ - لاوند ـ الامام الصادق : ٨٩.

كان يطمئن بحركة ابي مسلم الخراساني ويراه مسيراً لتنظيم سري ، اختاروه ليكون واجهة لها ، ولكن ابن الحسن ، اندفع في تصديق ابي مسلم ، وكانت النتيجة ان خسر المعركة وقتل ولده محمد ذي النفس الزكية وعندما علم بمقتلهم ، بكى عليهم حتى علا صوته بالبكاء ، وترحم لهم[1] .

ان الامام الصادق (ع) كقائد وأمام للامة ، كان يحسب حسابه في كل تحرك يقدم عليه ، لانعكاس سلبيات الحركة على شيعته ، واتباعه ، وخاصته ، وكان عليه ان لا يفرط بهم في عملية ثورية ، لا يعرف مقدار نجاحها ، ولا يختلف هذا الحال في العهد الاموي أو العباسي .

وقد اكدت الاخبار : ان الارهاب ، والظلم ، والعسف الاجتماعي ، والقتل والتعذيب ، الذي لاقاه العلويون ، وشيعتهم في

---

١ ـ المجلسي ـ البحار : ٣٠٢/٤٧.

ايام العباسيين فاق بدرجة كبيرة ما عانوه في العهد الاموي .

ولم تقتض عملية التغيير في المجتمع ـ في اي وقت كان ـ المغامرة والارتجال لان مردود العمل الغير المدروس قد يؤدي الى خسارة كبرى في كيان المجتمع تفوق بكثير الغاية التي من اجلها قصد التغيير .

وليس معنى هذا ان يسقط القائد دوره من المسؤولية التي حمل اعباءها بحجة انسداد هذا الطريق امامه ، بل لا بد ان يخطط ، ويعمل لاسلوب آخر يوازي ذلك العمل ، ويحقق الهدف الرسالي .

ومن هنا نرى ان الامام كان بعيد النظر جداً ، حين حلل بدقة نفسية الناس الغاضبة على الانحراف عن خط الدعوة ، وتلمس روح التقاعس فيهم عن مواصلة الجهاد لارساء قواعد الدولة التي تهدف اليها الدعوة الاسلامية ، وان غالبيتها تكتفي بالصراخ ، وطرح الشعارات ،

لكنه عند العمل لم يبق في الميدان الا صفوة ، لا يمكن النهوض بهم ، كما حدث لعمه زيد بن علي ابن الحسين ، حين ثار ضد الامويين التف حوله عدد غفير لكن عندما حمى وطيس الحرب ، خذلوه ، وتركوه لعدوه يفعل به ما يشاء من قتل ، وتمثيل ، وصلب ، وحرق .

ومن جانب آخر كان الامام (ع) يعرف واقع السلطة الحاكمة ، سواء من الامويين او العباسيين ، وتهالكهم على كراسي الحكم ، وانهم في سبيل البقاء على السلطة لا يمتنعون من ارتكاب اي محذور شرعي ، فالدين لعق على السنتهم ، يلوكونه حيث ما درت مصالحهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون .

وعندما وصل الامام الى هذه الحقيقة المرة ، عمد الى الطريق الآخر الذي يوصله لهدفه الكبير في تحقيق رسالة الاسلام ، وذلك من طريقين :

احدهما ـ العمل من أجل بناء القواعد الشعبية ، وتوعيتها بالثقافة الاسلامية وبما يهيأها

لتكون أرضية صالحة لتسلم السلطة .

ثانيهما ـ تحريك ضمير الامة الاسلامية ، وارادتها ، والاحتفاظ بالضمير الاسلامي والارادة الاسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الامة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين[1] .

ولم يتحقق هذا الاتجاه الا بالعمل الفكري ، الذي يمكن ان يكون بديلاً للعمل السياسي ، او اشد أثراً منه ، فيما اذا خطط له بذهنية المفكر المبدع والسياسي القدير ولم يكن هناك من هو اكثر قدرة وقابلية من الامام الصادق (ع) في هذا المضمار .

ب ـ الامام الصادق والاتجاه الفكري :

واذا كان الامام الصادق (ع) قد اعتزل النشاط السياسي العلني نتيجة عوامل ظرفه المعاش ، الزاخر بالسلبيات والمتناقضات ، فانه

---

١ ـ الشهيد الصدر ـ بحث حول الولاية : ٩٥ .

توجه بكل طاقاته المعنوية ، وقدراته العلمية الى ابراز الاصالة الفكرية في مدرسة ائمة آل البيت ، وتألقها في ميدان المعرفة بما يتناسب وشموخها العلمي . وهذه المدرسة ـ في حقيقتها ـ وضع لبنتها الاولى الامام علي (ع) وتعهدها من بعده اولاده الغر الميامين ، وكان دور الصادق فيها ، ان باشر نهضتها على نطاق واسع مكشوف مبيناً الحقائق العلمية الاسلامية ، والمفاهيم الشرعية ، والاحكام الدينية وهو بذلك يجدد النهضة فيها بعد فترة من الركود الفكري تحمل وزرها الاكبر الحكام والامراء والملوك الذين بسطوا سلطانهم على الساحة الاسلامية مغتصبين مركز القيادة في ادارة شؤون الامة من اصحابها الشرعيين .

« لقد استفاد الامام الصادق من ضعف القوى السياسية التي كانت من قبل تضيق عليه ، وعلى الائمة من آبائه ، بالنظر لان عصره شهد ضعف وانهيار الكيان السياسي الاموي ، ثم نشاط الحزب العباسي ، وتأسيس الدولة العباسية

وسط خضم من المنازعات والفتن ، فانشغل الحكام بأمورهم هذه عنه مما امكنه من فتح ابوابه لطلاب العلم والحقيقة ، وجعله على اتصال مباشر مع الامة يشحنها بمقومات الفكر ، والاصلاح ، والهداية »[1] .

والامام عندما تلمس واقع الامة السياسي المرير ، وسحطية ثقافتها العقائدية ، وعدم وعيها لمسؤولياتها الاجتماعية اتجه الى تهيئة المسارب الفكرية ، وشحذ النفوس بالهمة والجلد لمعرفة الثقافة الاسلامية ، والاستفادة منها استفادة فعالة في مواجهة تحديات التيارات المناوأة للعقيدة التي زخر بها ذلك العصر ، وبما يؤهل الفرد للمشاركة الجدية في ترسيخ القواعد والاسس لبناء مجتمع انساني حضاري ، هو من أهم اهداف المسيرة الاسلامية .

وان هذه العملية التغييرية البناءة للانسان المسلم تحتاج الى انطلاق وتحرك من القيادة

١ ـ حسن الامين ـ دائرة المعارف الشيعية : ٢/٧٨ ـ ٧٩ .

الرائدة ، وان الامام كان محاطاً بعيون ترقب كل تحركاته وتحصي عليه انفاسه ، في العهدين الاموي والعباسي ، بالاضافة الى الحملات الارهابية والتعسفية التي كانت تلاحق اصحابه وشيعته ، وحتى يصل بهم الى التنكيل والقتل ، ولكن كل هذا لم يقف سداً في وجه الامام من ممارسة دور القيادة الرائدة في الامة ، بحيث تمكن ـ رغم كل العقبات ـ ان يحقق اهدافه في هذا المضمار في خلق ثورة فكرية ، لمّت رواد العلم والفضيلة حولها ، ونشرت الوعي الثقافي الاسلامي في اوساط الجماهير المتعطشة لثقافة آل البيت ، حتى ذهبت المصادر التاريخية الى القول بأن طلاب مدرسة الامام ابي عبد الله الصادق تجاوزوا الاربعة الاف طالب ، ومن مختلف البلاد الاسلامية ، جاؤوا لينتهلوا من غير الامام في شتى انواع المعرفة . وهي حصيلة ـ في حد ذاتها ، ووقتها ـ تعتبر انتصاراً كبيراً لاهداف الدعوة الكبرى .

ان البناء الحضاري للمجتمع ـ اي مجتمع

كان ـ يرفع من مستواه التقييمي ، عند مقارنته بالمجتمعات المتخلفة ، ذلك لان النهضة الحضارية تعيد صياغة الانسان الى جذوة زاخرة بالعطاء ، كما تشد تركيبة المجتمع الى الرقي والتقدم .

والامام من هذا المنطلق البناء ، فجر الثورة الفكرية الزاخرة بالعطاء في ارجـاء المجتمع ، وباشر عمله بالاسلوب العلني الظاهر في دفع مدرسته الثقافية ، معتقداً ان السلاح وحده لا يحل مشكلة اجتماعية ، ولا يدفع ظلامة مظلوم ، ولا يخلق انساناً يتحلى بارادة صلبة ، وبالعكس فان الثورة الفكرية تنتج كل ما تقدم ، وتنمو في ظله كل المقومات الاساسية للانسان المجند للعمل الظافر في ميدان العقيدة .

ولا بد لنا ونحن في اطار الحركة الفكرية ـ التي خلقها الامام الصادق لامته ـ ان نوجز مميزاتها ومحتواها ، لنكتشف من خلالها الابعاد الرصينة في تحقيق الاهداف الكبرى للدعـوة الاسلاميـة ، ويمكن ان تتمثل بالاتي :

١ ـ انها جمعت عدداً كبيراً من المسلمين ، ومن شتى انحاء العالم الاسلامي حتى تجاوز عدد طلابها الاربعة الاف ، في ذلك الوقت الذي لم يكن السفر فيه بسهولة اليوم ، لتوفر المواصلات وراحة الانتقال .

٢ ـ كما انها ضمت أعلاماً كباراً اشتهروا بمركزية علمية ، ورئاسة مذهبية اسلامية فردية وجماعية ، مما يدل على ان سعة آفاق هذه المدرسة في المعرفة الفكرية دفعت بهم للانتماء اليهـا ، والاستفادة من منهلها وقد مرت الاشارة الى ذكر بعضهم من غير الشيعة وقد ذكر ان ابا حنيفة ـ امام المذهب الحنفي ـ قال : « لولا السنتان لهلك النعمان » ويقصد بالسنتين اللتين تلمذ بهما على الامام الصادق .

كما ذكر عن مالك بن انس ـ امام المذهب المالكي ـ انه قال : « ما رأت عين ولا سمعت أذن ، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد فضلاً ، وعلماً ، وعبادة وورعاً ، وكان كثير

الحديث ، طيب المجالسة ، كثير الفوائد »[1] .

٣ ـ انها لم تقتصر في عطائها على الفقه ، والحديث ، وان كانا من اولى مهامها فقد فتحت باب التخصص العلمي في الفلسفة ، وعلم الكلام ، والرياضيات ، والكيمياء الى جانب العلوم الدينية : كالتفسير والحديث ، والفقه واصول الفقه « مما يدل على ان قصد الامام الصادق كان متجهاً نحو قيام حضارة اسلامية متميزة تقوم على العلم والفكر فيما تقوم عليه من دعائم ، وما تتجه نحوه من اهداف »[2] .

٤ ـ فتح باب الاجتهاد والاستنباط ، وقد كانت الافكار الفقهية خاصة تجمد على محتواها النصوصي « وعندما يغلق باب الاجتهاد على

---

١ ـ المظفر ـ الامام الصادق : ١٣٣/٢ .

٢ ـ للاطلاع على جوانب المعرفة في مدرسة الامام الصادق يراجع : المظفر ـ الامام الصادق : ١٣٩/١ ـ ١٨٥ وحسن الامين ـ دائرة المعارف الشيعية : ٧٤/٢ ـ ٧٦ ورمضان لاوند ـ الامام الصادق : ١٦٥ ـ ١٩٦ .

مذهب فكري ـ ايا كان المذهب الفكري ـ فان ذلك يؤدي الى جمود المذهب عن التطور والنمو ، ومسايرة الاحوال ، والاوضاع المتجددة... وقد كان لهذا العامل تأثير كبير على نمو المدرسة فيما بعد عصر الصادق ، واقبال الناس عليها لمسايرتها للاوضاع الاجتماعية المتجددة»[١] .

٥ ـ تدوين العلوم والتأليف ، فقد وضعت هذه المدرسة أساس التدوين والتأليف لمختلف العلوم التي تلقوها واخذوها عن الامام ، ولم يكن تأليف الكتب معروفاً قبل الامام الصادق ، بل كان نادر الوقوع « فاذا بالصادق ينهض بهذا العبء ويحرض على التدوين والتأليف ، ويقول لهم : « اكتبوا فانكم لا تحفظون ما تكتبون »[٢] ، ويقول مرة الى المفضل بن عمر الجعفي ـ وهو من أخص تلامذته ـ أكتب ، وبث علمك في اخوانك فان مت فورث كتبك بنيك ، فانه يأتي زمان هرج ما

١ ـ حسن الامين ـ المصدر المتقدم : ٢/٧٨ .
٢ ـ المظفر ـ الامام الصادق : ١/١٤٢ .

يأنسون فيه الا بكتبهم »[1] .

وذكرت المصادر : ان طلاب الامام الصادق انطلقوا للتأليف والتدوين تبعاً لتعليماته فبلغت اربعمائة مؤلف في شتى انواع المعرفة والعلوم [2] .

ان هذه اهم مميزات مدرسته الفكرية ، والتي انعكست اثرها على المجتمع الاسلامي بما يدعو للفخر والاعتزاز ، يقول الجاحظ : « وفجر الامام الصادق (ع) ينابيع العلم والحكمة في الارض ، وفتح للناس أبواباً من العلوم لم يعهدوها من قبل، وقد ملأ الدنيا بعلمه »[3] .

وقال ابن حجر في هذا الصدد : « ونقل عنه الناس من العلوم ما سارت به الركبان ، وانتشر صيته في جميع البلدان »[4] .

---

١ ـ المظفر ـ المصدر المتقدم : ١/١٤٢ .
٢ ـ معروف ـ الائمة الاثنا عشر : ٢/٢٥٥ ـ ١٥٧ .
٣ ـ الجاحظ ـ رسائله ـ تحقيق السندوبي : ١٠٦ .
٤ ـ ابن حجر ـ الصواعق المحرقة : ١٢٠ .

ثالثاً ـ منهج الامام الصادق في اعداد الفرد المسلم :

الانسان لبنة المجتمع الاساسية ، فاذا صلح الفرد وأعد اعداداً كاملا للحياة صلح مجتمعه وسعدت حياته ، وتقدم صاعداً الى مدارج الكمال . واذا اهمل كان مدعاة لتأخر مجتمعه ، ومشاركا في تخلفه ، وانحطاطه .

وحيث ان الامام الصادق (ع) ممارس دور الامامة وقيادة الامة ، وعمل من اجل خلق مجتمع انساني اصيل ، تتوفر فيه : العدالة الاجتماعية ، والمعايير الاخلاقية ، والقيم الخيرة ، فقد بذل كل السبل الممكنة على تركيز الاسس والمبادىء العامة التربوية ، التي رسمتها الشريعة الغراء لغرض اعداد الفرد المسلم لتحمل مسؤولياته في بناء مجتمعه ، واثبات دوره الفاعل النامي كداعية معطاء في مسيرة الاسلامية ولقد ترك في هذا المضمار ثروة زاخرة ، نذكر منها :

قال عليه السلام : يوصي شيعته :

« اتقوا الله ، وسلوه ان يشرح صدوركم للاسلام ، وان يجعل السنتكم تنطق بالحق ، حتى يتوفاكم وأنتم على ذلك »[1] .

وقال عليه السلام :

« ان الرجل منكم اذا ورع في دينه ، وصدق الحديث ، وادى الامانة ، وحسن خلقه مع الناس ، قيل هذا جعفري ، ويسرني ذلك ، ويدخل عليّ منه السرور ، وان كان على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره ، وقيل هذا أدب جعفر »[2].

وقال عليه السلام :

« ان الله عز وجل خص رسله بمكارم الاخلاق ، فامتحنوا انفسكم ، فان كانت فيكم فاحمدوا الله واعلموا ان ذلك من خير وان لم تكن فيكم ، فاسلوا الله فيها وهي عشرة : اليقين ،

---

١ ـ اسد حيدر ـ الامام الصادق : ١٣٢/٣ نقلا عن روضة الكافي .

٢ ـ المظفر ـ الامام الصادق : ١٤٢/١ ـ ١٤٣ .

والقناعة ، والصبر ، والشكر ، والحلم ، وحسن الخلق ، والسخـاء ، والغيـرة والشجـاعـة والمرؤة »[1].

وقـال عـليـه الـسـلام عـن جـده الرسول (ص) :

« من اصبح لا يهتم بأمور المسلمين ، فليس بملسم »[2].

وقال عليه السلام :

ويل للقوم لا يدينون الله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر »[3].

وقال عليه السلام :

« جبلت الشجاعة على ثلاث طبايع لكل واحدة منهن فضيلة ليست للاخرى : السخاء بالنفس ، والانفة من الذل ، وطلب الذكر ، فاذا

---

١ ـ الكليني ـ الكافي : ٥٦/٢.

٢ ـ الكليني ـ المصدر المتقدم : ١٦٣/٢ .

٣ ـ الكليني ـ المصدر السابق : الحديث ٤ باب الامر والمعروف .

تكاملت في الشجاع كان البطل الذي لا يقام لسبيله ، والموسوم بالاقدام في عصره. . . »[١] .

وقال عليه السلام :

« من عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه. . . »[٢] .

وفي هذه الكلمات القليلة رسم الامام الصادق الاسس الرئيسية لتربية الفرد المسلم ، ووعي كل مسلم الى التحلي بها ، والتمسك فيها ، ونستطيع ان نحددها بالآتي :

أ ـ الايمان بالله :

العامل الرابط للفرد بخالقه ، هو الايمان اليقيني بوجوده وقدرته وامكاناته التي لا تحد ، ولا تزول ، واذا كانت هذه الحقيقة قد تثبت في النفس الانسانية ، كانت الطاقة الفاعلة التي يمتلكها

---

١ ـ محمد امين زين الدين ـ الاخلاق عند الامام الصادق : ٨٥ نقلا عن : تحف العقول : ٧٨.

٢ - الكليني ـ اصول الكافي : ٢ / ٣٣٤.

الانسان قد انصهرت في مشاعره وكل حواسه ، فتمنعه من التقرب الى كل ما لا يرضي الله ، ويكون ـ حينذاك ـ مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ **ان الذين امنوا ، وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية** ﴾[1]، وقوله عز وجل : ﴿ **وان الله لهادِ الذين آمنوا الى صراطِ مستقيم** ﴾[2] .

والامام الصادق (ع) عندما يدعو الانسان الى تقويم نفسه بالايمان بالله فانما يشير الى تربية ضميره ، وتهذيبه من كل ما يخل بسلوكه ، وعواطفه ، وغرائزه كانسان خلقه الله لمسؤولية بناء المجتمع ، وارساء العدل الالهي فيه .

ان الضمير هو الوازع النفسي القوي الذي يكون للانسان بمثابة مرشد لسلوكه في الحياة ، يبصره بعواقب فعله، واذا كان هذا الضمير يضعف احياناً ، فانه كذلك ينمو ، ويشحذ بالتربية

---

١ ـ سورة البينة ـ آية : ٧.
٢ ـ سورة الحج ـ آية : ٥٤.

الفردية والاجتماعية ويختلف باختلاف الافـراد والشعوب قوة وضعفاً .

واذا كان الضمير هو العامل الاساسي للتأثير على سلوكية الفرد ، واثارة عـواطفه ، وتهيـج غرائزه ، فان اكبر مقومات الضمير ، والسيطرة عليه ، هو الايمان بقدرة اله قادر يحاسب على الكبائر والصغائر ، ويطلع على ما تكنه السرائر . ولقد وصف احد الفلاسفة القدامى الضمير ، بقوله : « ان ضميرا بلا عقيدة بالله كمحكمة بغير قاض»، واذا تمت السيطرة على الضمير بالايمان ، كان الانسان مثلا لكل القيم الرفيعة ، والمثل العالية ، قال الامام الصادق : « ان الله بعدله وقسـطه ، جعل الـروح والراحـة في اليقين ، والرضا . . . »[1]، وهما ـ اي اليقين والرضا ـ قوام الايمان ، وبهذا يكون الفرد جندياً مطيعاً لأمر الله ، ويستحلي كل تضحية في سبيل الله ، وقولة

---

١ ـ الكليني ـ اصول الكافي : الحديث ٣ باب فضل اليقين .

سيد الشهداء الامام الحسين (ع) في ساحة المعركة ، يوم عاشوراء :

ان كان دين محمد لم يستقم
الا بقتلي يا سيوف خذيني

من هذا النوع الرائع الفريد للايمان .

٢ ـ التحلي بالفضيلة :

والفضيلة التي يريدها الامام الصادق ، هي الانسانية الكاملة ، وهي مفتاح تغلب الفرد على قواه الشريرة ، اذ الانسان بفطرته يملك غريزة الخير ، وتمتثل في : الورع والعفة والصدق ، والوفاء ، والقناعة ، والحلم ، والسخاء ، والمرؤة ، و الامانة وامثالها . كما يملك مثلها غريزة الشر ، المتمثلة : بالظلم ، والقتل ، والخيانة ، والحقد والاعتداء والنهب ، والكراهية ، والغيرة فيما لا يرضى الله ، وامثال ذلك ، وكل من الغريزتين قابلة للتطور والنمو ، والضمور ، والانضواء . تبعاً لارادة الانسان ، ورغبته ، فاذا

كان الفرد مؤمناً بالله ايماناً يقيناً ، كانت انسانيته قد نمت وتطورت الى الكمال ، وانبسطت اثارها على سلوكية الشخص ، فبانت فضيلته : يقول الامام الصادق (ع): « لا ينبغي لمن لم يكن عالماً ان يعد سعيداً »[1] وكيف ينال السعادة من حرم كمال العلم ، وكيف تحصل الانسانية الكاملة لمن يقوده الجهل .

٣ ـ الشجاعة :

والشجاعة من أعز ملكات الانسان، « واكثرها اثراً في تهذيب الاخلاق وتنظيم الاعمال ، لان تهذيب الملكات جهاد ، والمحافظة على الملكات المهذبة جهاد اخر ، والمجاهد مخذول اذا لم تناصره الشجاعة ، ولم يرافقه الصبر ، والشجاعة بنفسها احدى الملكات التي لا تحصل الا بالمجاهدة ، لانها توازن في قوة الغضب ، وكيف يتوازن الغضب من غير كفاح ، وكيف ترد

---

١ ـ زين الدين ـ الاخلاق عند الامام الصادق : ٢٦ نقلا عن تحف العقول لابن ابي شعبة : ٨٩ .

عاديته بغير جهاد . واذن فلا بد للانسان من قوة اخرى تضرب الغضب بالغضب ، وتمزج اللين بالقوة لتركب من المجموع مزيجاً معتدلاً يسمى الشجاعة ، وتلك القوة هي الحكومة ، وجنديها المكافح هو قوة الارادة »[١]

والامام الصادق عليه السلام ـ يؤكد على الشجاعة ، لأنها تحمل مظهرين مهمين : احدهما : اقدام في محل الجهاد ، وثانيهما : ثبات في مقام الدفاع ، والفرد بهذين المظهرين يعتبر انساناً ملتزماً ، يستعد للفداء والتضحية ، وهذا مظهر الجهاد ، فاذا كان ذلك في سبيل الله ، فانها الشهادة والكرامة التي يتطلع اليها كل انسان عرف قول الله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾[٢] .

والانسان الذي لا يملك الشجاعة ـ مهما كانت درجة ايمانه ، وفضيلته ـ يعجز عن اداء

---

١ ـ زين الدين ـ المصدر المتقدم : ٨٢ .
٢ ـ سورة ال عمران ـ اية : ١٦٩ .

رسالته كداع صادق مسلم ، حتى وان كان تواقاً لممارسة دوره الرسالي ، ومؤمناً به ، لكن عامل الخوف ، والتخاذل يقفان في طريق تحقيق اهدافه ، وامانيه ، وتطالعاته الرسالية .

هذه هي اهم الاسس والمبادىء العامة لاعداد الفرد المسلم، وتهيئته لتحمل مسؤولية البناء والتغيير ، يضعها الامام الصادق عليه السلام واضحة صريحة عبر القرون والاجيال امام كل مسلم ومسلمة ملتزم باداء رسالته التي فرضها عليه الاسلام ، كما يقول الامام علي عليه السلام : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » وعلينا ـ ان اردنا لانفسنا ان نكون جنود عقيدة ، ولسان حق ورمز فداء ـ ان نتمسك بهذه الاسس والمبادىء العامة لله وحده ، ونلتزم بها التزاماً يرتفع من صورة الالتزام القاهر الى الرغبة الذاتية في الاداء ، وتلك هي الثمرة الحقيقية للايمان ، ﴿ **ولكل درجاتٌ مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾[1] .

والسلام عليكم ورحمة اللهِ وبركاته .

= ١ ـ سورة الانعام ـ آية : ١٣٢ .

طبع على مطابع

دار الزهراء

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت — لبنان

ص.ب ٩٣٧٠ ت.م : ٨١٥٦٨٦